



الرسم البياني لرواية السودانية

عملها القصصي الكبير رغم نواصه التي ذكرنا ، يصير به بعض النقاد وبه جماعية تؤرخ لنسوء البرجوازية الجديدة في السودان . وتأكيدا لهذا المفهوم من جانب النقاد الاشتراكيين الذين ظهروا بعد الحرب العالمية، كتب عبد الرحمن الوسيلة مذكرات معارضة « موت دنيا » اسمها « حياة دنيا » ونشرها في سلسلة بجريدة « الميدان » اليسارية ، وكانت مذكراته سردا تاريخيا لنضال المثقفين اليساريين، وكفاحهم من أجل حياة جديدة يحكمها الفكر البروليتاري ، ولم تكن « حياة دنيا » عملا أدبيا بقدر ما كانت معارضة اجتماعية وسياسية للفكر البرجوازي المتمثل في « موت دنيا » .

ولا بد من القول هنا ، ان المحجوب وعبدالحليم لم يكونا نجمي الادب القصصي في زمانهما . فقد سبقهما ، او عاصرهما ادياء آخرون مارسوا كتابة القصة القصيرة وحدها . . وكان اقرب هؤلاء الى روح العمل القصصي الحديث الكاتب الناقد معاوية محمد نور . . لقد رفض معاوية كلية غردون ، وذهب الى القاهرة ، ثم بيروت في اوائل الثلاثينات وتخرج من الجامعة الامريكية ، واطلع اطلعا واسعا على الاداب الاوروبية الحديثة ، وكتب مبكرا في المجلات والجرائد المصرية عن الرواية والقصة والادب الحديث بصفة عامة ، وكتب القصة القصيرة بأسلوب أكثر واقعية وفنية من رصفانه في السودان، وتبدو في قصصه بطولها الزماني ، وشخصها الكثيرين ملامح الرواية التي لم تكتمل او التي صفتت ضغطا . اما واقعيته فتبدو في تقصي احوال الكادحين ورسم الشخصيات على طريقة جوركي . . وقد مات معاوية في الثلاثين من عمره ، ولم يخلف الا مجموعة من المقالات في كل موضوعات الادب والثقافة ، والا مجموعة محدودة من القصص القصيرة ، وربما جرب كتابة الرواية ، ولم يتسع المجال لنشرها فضاقت فيما ضاع من انتاجه ، خاصة وانه قضى السنوات الاخيرة من عمره القصير في حالة فقدان للذاكرة .

بالاضافة الى معاوية ، ومحجوب ، وعبدالحليم ، حاول مثقف آخر هو محمد عثمان هاشم كتابة القصة الطويلة بأسلوب عربي تقليدي واتباع طريق الرواة الاقدمين في اعداد عمله الذي استمد مادته من قصة شعبية سودانية هي قصة « تاجوج والمعلق » والتي تشابه الى حد كبير قصة مجنون ليلى التي صاغها احمد شوقي في رواية شعرية ، ولقد صنع هاشم بأسلوب نثري تقليدي ما صنع شوقي بأسلوب شعري مع الفارق الادبي بينهما . ولقد كان متأثرا من جانب آخر بمدرسة جورجي زيدان التي استست القصة التاريخية

ليس عن الرواية السودانية بطويل ، اذا ما قورن بالرواية العربية في السام ومصر . فقد ظل الشعر صاحب الصولة وحده حتى بداية الثلاثينات من هذا القرن ، حين انتج اللقاح بين الثقافة العربية التقليدية ، والثقافة الاوروبية الحديثة نتاجه في الادب السوداني . . . وكان ذلك على ايدي الرواد الاول من كتاب مجلتي النهضة والفجر (١٩٢١ - ١٩٢٢) .

في هذه الفترة انتشرت موجة من الادب الرومانسي ، وظهرت لأول مرة انماض أخرى تحاول ان تنافس الشعر من غير ان يكون لها القدرة على ذلك . . وكانت الموجة الرومانسية ارهاصا لنشأة اول طبقة برجوازية حديثة تصبو في داخلها الى تغيير المجتمع بما يتناسب وروح العصر ، وتطمح أن تكون هي صاحبة السلطة في هذا التغيير على اطلال المجتمع الانطاقي وشبه الانطاقي السائد ، وقد رفدت هذه الحركة بالفعل نزعات السياسية البرجوازية بالأيدي ، وخلقت قياداتها التي تعاونت فيما بعد مع الطائفية ، املا في ان تتسكن من السلطة من خلال هذا التعاون وفي ظلاله . . وتجمع كل ذلك في الحركة الفكرية والسياسية التي سادت مؤتمر الخريجين العام ، ولى ما بعد قيام الاحزاب ، وحزبا الامة والاشقاء في منتهما . وقد برزت معانم هذا الاتجاه الرومانسي البرجوازي في اول محاولة لكتابة عمل قصصي طويل وهو كتاب « موت دنيا » الذي اشترك في اعداده كاتبان من جيل الرواد ، هما محمد احمد محجوب ، وعبدالحليم محمد . و « موت دنيا » الذي نشر في منتصف الاربعينات وكتب بلغة المذكرات - مع ظهور الخط الفاصل بين اسلوب الكاتبين - يعكس الى ابدى مدى فترة البراءة الاولى للبرجوازية الناشئة حينذاك ، وبساطة احلامها وضخالة تجاربها .

ولم يكن في « موت دنيا » خط واحد ، او خيط دقيق يربط العمل القصصي برباط فني ، او يجعل منه وحدة عضوية . . يكفي ان يجلس كل واحد من الكاتبين ليسرد بأسلوبه ، او بأسلوب مستعار ما يتذكر من عهد الطفولة والصبأ الى عهد الطلب في كلية غردون المتذكارية ، نائرا في انشاء ذلك بعض صيوات الشباب الباكر ، واحلامه المنراء ، وبعض المصاعب والعقبات التي خلفت الالام والحسرات . . وبعض الوقفات التي دخلت في حسابهما التاريخ .

ولم يكن هذا هو العمل الوحيد للكاتبين ، فقد كان للمحجوب قبل ذلك دوره كناقد في بداية الحركة الادبية الحديثة ، وكان عبد الحليم من اول رواد القصة القصيرة في مجلة النهضة . على ان

واكسبه شيئا من سمات القدرية الجبرية . اما من حيث الشكل ، وربما المضمون - فانها تقترب من « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، وتتاثر بها . وكان الكاتب من الشجاعة بحيث ذكر ذلك في مقدمته : « انها قصة زقاق سوداني ، كما ان زقاق المدق - مثلا - قصة زقاق مصري » .

ولعل الراي الذي اثبته مختار عجوبة في كتابه « القصة الحديثة في السودان » والذي اقتطفه من مقالة للكاتب القصصي السوداني الطيب زروق يكشف عن اثر الكتاب المعريين ، والكتاب الروس في القصة السودانية ، فهو يقول : « ... وظهرت الافكار الاشتراكية تحل معها الى بلادنا معالم الادب الاشتراكي ، فقرا ادباؤنا الكثير مما كتبه رواد الواقعية ، امثال جوركي وتورجنيف ، وتشيكوف - واللغة المعرية الحديثة بمضمونها الانساني ونظرتها الواقعية للحياة قد اثرت تأثيرا لا يستهان به في قصتنا السودانية ، فما كتبه نجيب محفوظ ، ويوسف ادريس ، وعبدالرحمن الشرفاوي ، ويوسف الشاروني ، ولطفي الخولي ، وغيرهم ، كان بمثابة المحرك لولد قصة سودانية تتخذ من الواقعية اسلوبا في معالجة مشاكل الحياة والمجتمع » .

وبعد الاستقلال (١٩٥٦) وبتاثير الصراع المشتعل في السودان وباتر من الصراع الفكري في مصر بدأ الاتجاه الواقعي ، والواقعي الاشتراكي يتبلور في الانتاج الروائي والقصصي الجديد، وكانت المحاولة الاولى رواية « بداية الربيع » لابي بكر خالد ، والتي تناول في احداثها الصراع السياسي الذي دار قبل الاستقلال بقليل بين القوى التقدمية، والقوى الرجعية حول قضايا الكفاح ضد الاستعمار ، ومن اجل ارساء دعائم مجتمع جديد .. واتخذ ابو بكر مدارا لروايته حركات الطلاب ، ومجتمعات الشباب في تلك الفترة المليئة بالحياة والنشاط .. على ان صوت الصراع السياسي والفكري بشعاراته ولافاته طغى في الرواية، فمحا كثيرا من الملامح الاجتماعية والذاتية للشخص . كما غطى الانحياز للبطل التقدمي - بشكل تقريبي - على جانب كبير من عفوية الحركة وصدق التناول .

غير ان الرواية بالرغم من ذلك كله تعطي مؤشر تحول واضح في طريق الالتزام ، وتعكس طعم الواقعية في تلك الفترة التي علا فيها صوت المعارك السياسية على كل شيء . والرواية فوق ذلك تؤرخ للمجتمع من زاوية معينة ، وبمفهوم سياسي محدد .

ويربط مختار عجوبة في كتابه عن القصة الحديثة في السودان بين شخصيات « بداية الربيع » وابطال رواية نجيب محفوظ « القاهرة الجديدة » كما يربط بين التيارات المتصارعة في الروايتين، ويقول : « ففي بداية الربيع نجد النماذج الثلاثة التي كانت تمثل التيارات الفكرية المتصارعة في المجتمع السوداني هي صورة مقابلة للتيارات المتصارعة في مصر عند نجيب محفوظ ، فنجد (صديق) يمثل الاخوان المسلمين ، و (محمد) كان شيوعيا و (سعد) كان لا منتما ، وهم شخصيات مأمون رضوان ، وعلي طه ، ومحجوب عبد الدائم عند نجيب محفوظ » .

ومع وجهة هذا الراي ، فان من المؤكد ان الصراع الذي دار في « بداية الربيع » صراع سوداني ، ولعل التشابه بين الفترتين السياسيتين في مصر والسودان ، اللتين يعبر عنهما الكاتبان هو الذي اوحى الى مختار عجوبة بهذا الراي رغم ما يكون من تاثير نجيب محفوظ على كتابات ابي بكر خالد في المرحلة الاولى من انتاجه .. والفرق بين « القاهرة الجديدة » و« بداية الربيع » ان الاولى اكثر واقعية ، والثانية اكثر اشتراكية وان نجيب محفوظ يلتزم التعبير من الزاوية الاجتماعية ، ويعطي ابطاله شخصياتهم الحقيقية من خلال الصراع الاجتماعي ، في حين كانت رواية ابي بكر خالد في المقام الاول وثيقة سياسية . والرواية بعد صغيرة الحجم ولا

وشهد عام ١٩٥٥ مولد أول عمل قصصي يقترب من شكل الرواية الحديثة وكان ذلك على يد الدكتور بدوي عبدالقادر خليل ، حين اصدر قصته الطويلة « هائم على الارض » . وكانت القصة لونا من الوان الترجمة الذاتية ، ولكن بأسلوب غير مباشر ، فقد اعد الكاتب خصوصها بشكل مذكرات عن حياة طالب يتلقى العلم في جامعات مصر ، وقد افاض الكاتب في وصف الجوانب العاطفية من حياة بطله ، وسرد غرامياته المتعددة ولم يتطرق الى الجانب الاخر من البيئة السودانية . او التي خرج منها بطل قصته . ولعله اهل ذلك عن عمد ، حتى لا يتعرف القاريء الى هوية البطل .. يكفي انها قصة عربية ، او مصرية بالتعبير الادق ومما يؤكد ذلك انه جعل الحوار يدور - على فلتة - بين الفصحى واللهجة المصرية .

على انه من الزاوية التاريخية والفنية على السواء ، لا بد من اعتبار « هائم على الارض » اول محاولة روائية أمكن نشرها لكاتب سوداني ، وتختلف عن سابقتها ، بان الحدث القصصي فيها والموضوع واحد ، وكذلك البطل ، وانها حاولت النهج الروائي الحديث في الشكل والاسلوب ، فخرجت كلون من الوان المذكرات والاعترافات التي صيغت بقالب القصة . وتختلف في هذا كثيرا عن « موت دنيا » التي حملت ذكريات كاتبين بأسلوب اليبورتاج التقليدي ، وعن « تاجوج » التي كتبت على طريقة الرواية التاريخية بلغة عتيقة .

وفي نفس العام ١٩٥٥ الذي صدر فيه « هائم على الارض » بدأ في بعض الصحف المحلية نشر اول رواية سودانية تقترب من الاتجاه الواقعي الاشتراكي في الادب ، وتصر عنه الى حد ، وهي الرواية التي اصدرها فيما بعد كاتبها خليل عبدالله العجاج تحت اسم « انهم بشر » وعنوان الرواية دال على الزاوية السياسية والانسانية التي يقف الكاتب على أرضها ، والتي تتضح اكثر واكثر اذا ما دلنا الى داخل عمله القصصي . فالرواية تجسيد لآلام فئة باتسة من الناس، تعيش في مكان واحد على هامش الحياة في مدينة ام درمان ، ويعايش الفئة تمثيل نسبي لفتنين اخرين .. فئة متوسطة الحال يمثلها (حسان) احد الموظفين المثقفين ذوي الاتجاه الاشتراكي المثالي ، وفئة نامية من الاثرياء الجند الذين استثمروا منذ اواخر عهد الاستعمار ، ويمثلهم (المتعارض) صاحب المقاولات ، ورجل الاعمال الكبير ، وموقف الكاتب هو الانتصار للفئة البائسة المغلوبة من خلال (حسان) ممثل الثقافة الاشتراكية المثالية ، بل وممثل البرجوازية الصغيرة المقهورة ، وقد غلب هو نفسه على امره في مسألة زواجه من حبيبته التي اختطفها بامكانياته الثري (المتعارض) . ولكن العجب ينتصر في النهاية لتعود اليه حبيبته ، وينهب افراد الفئة البائسة بعضهم الى القبور ، واكثرهم يتفرقون خارج زقاق الذي طردوا من ماواهم فيه حتى يتسع المكان لمبان جديدة ، ولفئات جديدة .

والرواية في مضمونها تقوم على الصراع بين الطبقات ، ولكنها اقرب الى الفكر الاشتراكي المثالي منها الى الفكر المادي . فالبطل - وفكره عماد فلسفة الرواية - برجوازي صغير ، وهو رغم نضاله الاصلاحى وسخطه على الاغنياء ، وعطفه على البؤساء فان همه في نهاية المطاف ان يعيش في هدوء مع حبيبته في حديقة منزلهما (ليستزوج من هجير الكفاح كلما لفتحه شمس) هذا المنزل الذي يقوم على انقاض (حوش عم مرجان) المأوى السابق للشحاذين والعميان ، وهم الذين لم يعد لهم وجود في الحي بسبب التطلعات الجديدة للفئات النامية من راسمالية وبرجوازية .

والقصة تمكس بهذا المستوى صراعا حقيقيا ظل يجري ويشند منذ ما قبل الاستقلال بفترة قصيرة وإلى اليوم ، ولكن تناول الكاتب للصراع من خلال الواقعية الرومانسية ، والفكر الاصلاحى الاخلاقي ، مع التركيز على الجانب العاطفي من حياة البطل اضعف من مستوى هذا الصراع

زيد الا قليلا عن مائة صفحة من القطع الصغير .

وقد واصل ابو بكر خالد الاتجاه الى السياسة في روايته الثانية والاخيرة ، والتي اصدرها في (١٩٦٧) بعنوان « النبع المر » وفيها يتناول احداث فترة الحكم العسكري ١٩٥٨ - ١٩٦٤ حتى فجر اثنافثة ثورة اكتوبر وابطال القصة يرتبطون مع ابطال « بداية الربيع » ولكنهم هنا ليسوا طلابا صغارا او من في مستواهم ، فقد نما الصراع واتسع الميدان ، فالابطال من طبقة الموظفين والمثقفين ، ومن افراد الطبقات الاجتماعية المتوسطة و« النبع المر » تطوير للناحية الاجتماعية والسياسية في عمل الكاتب ، لان رسم الشخصيات هنا اصبح اكثر دقة ، كما ان النضال السياسي يجري من خلال معترك اجتماعي واضح ، ولكن الكاتب ظم بظلة القصة ، وهي فتاة من الجيل الحديث مناضلة - حين وضعها في قالب فكري اكثر مما هو انساني فاصبحت اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة .

والشكل العام في « النبع المر » لم يختلف كثيرا في الناحية الفنية عنه في « بداية الربيع » . كل ما في الامر ان الكاتب عمد في روايته الاولى الى طريقة الفصول المتتادة والتي تتدرج من خلالها الاحداث تدرجا زمنيا تقليديا ، ولجا في الرواية الثانية الى طريقة كانت اكثر سهولة حين قسم العمل الروائي كله الى فصلين رئيسيين هما عبارة عن خطابين متبادلين يبين بطل القصة وبطلتها ، فجاء الشكل ايضا تقليديا ولم يتطور .

وابو بكر خالد رغم ذلك يتميز عن سابقه بانه اختط لنفسه طريقا ملتزما ، وانه كتب اكثر من رواية خدمة للفرض الذي خطط له بزواية فكرية وسياسية ، وانه قبل ذلك خرج وزميله خليل عبدالله الحاج وهو السابق عن مرحلة الحكاية القديمة واسلوب الذكريات والسير الذاتية التقليدية ، فهو و خليل عبدالله الحاج بهذا المستوى رائدا الرواية السودانية في مرحلتها الاولى .

وقد جاء بعد كتابتهما الاولى كاتب اخر هو فؤاد احمد عبد العظيم صاحب « بكاء على التابوت » ولكنه في هذه الرواية كان اقرب شكلا ومضمونا الى روح الكاتب المصري احسان عبدالقادر فسي رواياته الاولى ، وقد ركز همه على قطاع صغير من المجتمع مشغول بعوالم اخرى غير عوالم عامة الناس ، وبدا يزواج زوجا مصنوعا بين شخصيات مختلفة الانماط والاطوار في جو رومانسي عارم مشحون بلذائذ الحب وبكائياته معا .

وكاتبة اخرى ظهرت في نفس الفترة - اوائل الخمسينات - وان لم تنشر روايتها الوحيدة ، الا هذا العام وبعد وفاتها وهي السيدة « ملك الدار محمد » والرواية التي تحمل اسم « الفراغ العريض » تتجه الى لون من الترجمة الذاتية باسلوب غير مباشر ، وتتناول قطعا عريضا من المجتمع السوداني ، اول الاربعينات ، حين خرجت المرأة السودانية للعمل اول مرة . وفي الرواية محاولة لرصد وابسراز المناقضات التي عاشها المجتمع ، وعاشتها المرأة بوجه خاص في تلك الفترة ، كما انها تتناول التناقض بين حياة الريف من حيث خرجت البطلة ، وحياة المدينة حيث استقر بها القام من اجل العلم والعمل .

ورواية « الفراغ العريض » في هيكلها العام واسلوبها القصصي لا تخرج عن اتجاه الكتاب العرب التقليديين ، وعلى رأسهم المدرسة التيمورية، وتلاحظ ذلك في عنايتها بالاسلوب البياني العربي ، وبالحوار الفصيح وشبه الفصح ، وبالاحتشام في تناول الجوانب العاطفية ، وفي تصوير الشخصيات . ومن هنا كانت ملك الدار محمد في « الفراغ » على النقيض تماما من فؤاد احمد عبدالعظيم في « بكاء على التابوت » مع انهما - مثلهما مثل الآخرين - من خريجي مدرسة واحدة هي على التميم المدرسة المصرية التقليدية بدءا من هيكل صاحب زينب ، ومرورا بشمور ، والعقاد ، وطه حسين ، والرنجيب محفوظ والسباعي ، والشرفاوي ، واحسان ، وعبدالعظيم عبدالله . على انه لا بد من القول بان التيار الواقعي العام والواقعي

الاشتراكي، المتمثل في الادب الروسي الواقعي وبعض كتابات الواقعيين المصريين وجدا أرضا بكر في الرواية السودانية على يد خليل عبدالله الحاج ، وابي بكر خالد ، كما وجدا مجالا اوسع في التأثير على القصة القصيرة وكتابها الاوائل ، ومنهم عثمان علي نور ، وابو بكر خالد ، والطيب زروق ، والزبير هلي ، وخوجلي شكرالله . .

وقد مرت الرواية السودانية رغم حداثة عهدها بفترة ركود منذ ظهور الانتاج الاول في منتصف الخمسينات الى منتصف الستينات حين ظهر انتاج الطيب صالح الروائي ، ولا نستطيع ان نرد فترة الركود هذه الا لصعوبات النشر نفسها في السودان وفي خارجه ، وان عملية النشر نفسها اذا وجدت فهي غير مجزية ماديا للكاتب ، وغير ميسرة من ناحيته التوزيع والقيمة الشرائية للقرء . وقد كسر الطيب صالح طوق الرواية السودانية ، وفتح المجال العربي والعالمي امامها واسما بما تيسر له من صلات بحكم موقع عمله ، وبما اتيح له من امكانيات اديبية عالية .

فالطيب صالح في « عرس الزين » ، وفي « موسم الهجرة الى الشمال » وكلاهما نشر لأول مرة بمجلة « حوار » بين عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٦ يقدم نموذجا جديدا للرواية السودانية ، وللروائي ايضا . فهو من حيث التعبير والاسلوب جمع بين العبارة العربية القديمة والحديثة ، فكسب ذخيرة لغوية تسعفه كثيرا ، وهو من حيث الشكل والتقنية قد استفاد من القصة الاوروبية الحديثة ، فطمح النهط العربي الذي عاشه الكتاب من قبله ، وفتح باب التجديد ، وقدم فيه اجتهاده الخاص . .

وروايته « موسم الهجرة الى الشمال » نموذج للشكل الجديد في الرواية السودانية والعربية ، فقد تخلى فيها عن اسلوب السرد القديم وحطم البعد الزمني والمكاني بشكله الريب ، ليس ذلك لان القصة تجري احداثها في فترتين مختلفتان زمانا ومكانا ، وانما لان فصول القصة تتداخل والابعاد النفسية للرواية ولبطل القصة ، كما ان الشخصيات لم يعد يعتمد على الرسم المباشر والشكل الفردي ، بل يقوم على اسلوب التعرية والتجريد للانماط من خلال مجريات الاحداث والمواقف والحوار .

اما روايته الاولى « عرس الزين » فقد استفادت من الاسلوب المسرحي في مقدماتها ، كما ان البطل « الزين » وهو عبيط محفوظ يشبه شكل « المهرج » في بعض الاعمال الدرامية فهو الرابطة بين جميع الاحداث لان من حقه ان يكون في كل مكان وزمان ، وهو (سارية) بارزة وفعالة في محور الصراع الدرامي ، بل هو (بوصلة) هذا الصراع ، ومقياس حرارته . . وهذا ايضا نمط اوروبي عريق . . على ان الكاتب افلح في ان يجعل منه محورا محليا لقصة سودانية صحيحة . . وفي « عرس الزين » تماسك وتناسق يقرب الى السرد التقليدي ، ولكن تحريك الجامع المتمثلة في المسكرات الاجتماعية ، وفي احتفالات القرية ، وفي زواج الزين نفسه طغى على شكل هذا السرد ورتابته ، ويتندق الكاتب في هذه الرواية كما في « موسم الهجرة الى الشمال » في رصد الترادفات اللغوية ، والسميات الاخرى في وصفه للمناسبات والمواقف ، والحركات بصورة مبالغ فيها احيانا ، ولكنها تؤكد الذخيرة العلمية والادبية ، عربية واوروبية ومحلية . وفي الجانب المحلي فان الكاتب قادر باسلوب تحريك الجامع من الناس والحيوانات ، والاعداد ، على تقديم مسح اجتماعي ، وجغرافي ، وتاريخي لكثير من اوجه الحياة السودانية في الريف محدودا بفترة زمنية ليست هي الفترة الحديثة بحال بل هي ليست الا الرؤبة البعيدة لكاتب مفترب ، وفرام الطيب صالح بالجامع وينقدراتها التمثيلية للمجتمع جعله يكررها في اعماله القصصية الاخرى كرواية « بندر شاه » وهو يكرر كثيرا من الشخوص باسمه ، ولكن الفترات الزمانية التي يتناولها تختلف ، وفرامه شديد ايضا بتوظيف البطل او المحور في كل رواية من الشخصيات صاحبة الاطوار الشاذة ، والذين يكتشفهم سر دفين ، وهو في هذا يحيي اثر السحر في حياة

« أعمال الليل والبلدة » لا تخرج في شكلها الفني العام عن « أحداث القرية » . وحتى في موضوعها العام تحمل نفس السمة التي طبع بها ابراهيم اسحاق روايته الاولى ، وهي الاغراق في وصف البيئسة الريفية ، البعيدة عن روح المدينة ، وتحريك هذه البيئة بحدث عارض يكشف عن برائتها وضعفها امام تحديات الطبيعة والاحداث الفاضحة . كما يكشف عن تضامنها العشائري ، وذوبان الفرد بين المجموعة في مجتمع لاطفي ، شغله الشاغل هو الصراع مع الطبيعة والقدر ، وما شابه ذلك . وهنا يختلف ابراهيم اسحاق عن الطيب صالح ، لان الطيب يعكس صراعا لفئات اجتماعية نامية ، ولكنه يصر على ان يجسد هذا الصراع ، ويجعله قدرا نافذا ، في حين يحكي ابراهيم اسحاق عن درجة مختلفة جدا من المجتمع ، وعن عنصر آخر من الصراع يكشف فيه الكاتب عن مأساة الانسان الاولى ، وازمته الازلية .

وقد اغرق ابراهيم اسحاق في روايته اغراقا شديدا في البيئة المحلية ، وخلط بين الواقعية والحقيقة ، فجعل من لغة الحوار شيئا يصعب فهمه حتى على بقية السودانيين من غير جهة غسرب السودان ، كما انه افاض واطب في وصف الطبيعة ، والسميات الاجتماعية ، والمادية بنفس اللغة على وجه التقريب ، ولم يكتب ، كما فعل الطيب صالح بجعل الحوار وحده عاميا ، وتركيب التعبير على مستوى من النضاعة الكلاسيكية . لقد كان ابراهيم اسحاق يقترف من التربة المحلية دون ان يعني نفسه بغربة كثيرة ، ويبدو ان ثقافته القرية والتي تظفي على قراءاته العربية قد حدثت من انطلاقة التمييز عنده ، الى مجال ارحب ، والطريق ما يزال طويلا امام هذا الرائد الشاب .

شيء آخر نقوله عن الرواية السودانية اجمالا ، فقد تدرجت هذه الرواية من التقليد المباشر للادب المصري او محاكاته كما في « هائم على الارض » ، و« بكاء على التابوت » حتى تحررت بصورة نهائية ، ليكون لها طعمها الخاص ، ونكهتها المميزة عند الطيب صالح ، ثم ابراهيم اسحاق ، وقد سبقت ذلك محاولات للاستفادة من الشكل ، او القوالب الجاهزة دون المضمون الذي اصبح سودانيا واقعا ، كما في اعمال ابي بكر خالد ، وخليل عبدالله الحاج . وقد تدرج الحوار في القصة السودانية بنفس المستوى ، فاذا كانت « هائم على الارض » قد جادت بحوار شبه مصري ، فقد حاولت « بداية الربيع » انهم بشر « الحوار السوداني العامي القريب من اللهجة الفصحى بدرجة . واعتذر خليل عبدالله الحاج في مقدمته روايته للقاريء بسبب تقديمه الحوار بالعامية ، بعد ان كان قد اعده من قبل بالفصحى .

لقد كان خليل ، وابو بكر والآخرين فيما قبل الطيب صالح ، و ابراهيم اسحاق يحاولون التقرب الى القاريء العربي باي ثمن ، وكان مهمهم الاول هو الوصول الى مساحة جغرافية اوسع ، والقريب انهم لم يلبسوا من ذلك ما بلغه الطيب صالح الذي وجد حقا طيبيا رغم الاغراق في عاميته بعرض الزين ، ثم في بعض نواحي الحوار في موسم الهجرة ، وبندر شاه .

شيء آخر وهو ان الانتاج الروائي في السودان ظل محدودا وبطيئا بسبب الصعوبات التي تواجه النشر ، والتي يتضح اثرها المعوق في ان اكثر الروايات قد طبعت خارج البلاد (في بيروت او القاهرة) وان عملية التوزيع تبعا لذلك كانت غير منتظمة ، وكانت محدودة فسي الداخل والخارج على السواء .

وقد حالت صعوبات النشر دون خروج اكثر الاعمال الاديبسية والروائية في موعدها . فكثير من الروايات التي ظهرت تم نشرها بعد الفراغ من اعدادها بسنوات قد تطول وقد تقصر ، وهذا ما يجعل التسلسل الزمني للنشر غير متوافق دائما مع واقع الاعمال من الناحية التاريخية . ولقد حاولت جهدي في هذا التقديم ان اضع رسما بيانيا اقرب الى الحقيقة بابعادها التاريخية والفنية ، والتي تحتاج الى مزيد من الدراسة والتمحص في هذا الباب البكر من ابواب الادب السوداني الحديث .

المجتمع وسلوك الأفراد ، ويتخذ الخط الصوفي الشيعي الملى بالاساطير والشعوذات ، والقائم على سيطرة القوى الخفية والغيبيات . وقد تركز ذلك عند الطيب صالح في تجريد ابطاله الذين ذكرنا من الاختيار ، وفي تحريكهم وتحريك العالم من حولهم بغير تبرير ، والى مصير مبهم .. نجد ذلك واضحا في شخصية الزين وفي مصطفى سعيد ، وفي بندر شاه ، يتماثلون داخليا بين اصابع الطيب رغم اختلاف شخصياتهم الخارجية .

والطيب صالح لا يمثل بذلك اي تيار في الواقعية بمعناها المترم ، ولا يطور الواقعية السودانية او العربية ، ليس لخطه الذي ذكرنا وحده ، بل لانه يتعمد داخل رواياته عن اي خط فكري ملتزم حقائق الصراع الاجتماعي والتناقضات التي تحكم مسيرة المجتمع ، حتى المسكرات الاجتماعية التي اسمها هو كذلك ، وجاء بها في عرس الزين ، وحركها بشكل او باخر في رواياته الاخرى ، لا تمثل في عرسه سوى علامات ، وتنوعات ثابتة في الحياة الاجتماعية ، والصراع الذي يدور داخلها ليس سوى فقايع سرعان ما تلدوب ما دام البطل يسهه وسحره بلقي بطافية الاخفاء فوق رأس التناقضات .

كل ذلك لا يعني التقليل من قيمة الطيب صالح كفنن اصيل وصل بالقمصة السودانية والعربية الى مستوى عال من التقنية اثبت فيه مكانته الخاصة ، وتجربته المتميزة .

واخيرا وليس اخرا ، يجيء في الميدان ابراهيم اسحاق ، وهو كاتب من جيل الشباب العديد ، يعطي لونا وطعما جديدين في شكل الرواية ، ومضمونها ، وقد اظهرت روايته الاولى « حدث في القرية » والتي طبعت في ١٩٦٩ ، قدرة الكاتب على الاختيار والتناول ، بعيدا عن السبيل الطروقة من قبل .. فرواياته هي الاولى التي تدور احداثها كلها في منطقة نائية مجهولة من اعماق الريف غرب السودان ، وهي الاولى التي لا نجد فيها بطلا ، او ابطلا من البشر تدور حولهم الاحداث ، بل يظهر صوت الرواية (مشاهدا او شاهدا) من حين لآخر ، لينقلنا عبر الاحداث التي تتحرك في داخلها القرية بأكملها : اناسها ، وحيواناتها .. وهنا على العكس من « عرس الزين » تتحرك المجاميع حركة واحدة كأنها مفادة بعضا ساحر او كاتبها فرقة موسيقية يسيطر عليها قائد مجهول .

والرواية وهي متوسطة الحجم عدد صفحاتها لا يقل عن مائتسي صفحة تجري كل احداثها من صباح يوم الى مغربه في قرية من مناطق العطب في صحاري غرب السودان . فالقرية تنتظر الامطار والسيول في موسم الخريف لتدب فيها الحياة بعد الموات ، ولتنطلق فيها الحركة بعد الجمود ، وباتي السبل ذات صباح يفيض في الوادي ، ويملؤه ، ويهرع الناس والاطفال ، والحيوانات الى الوادي ليهاجوا على غير العادة بان حيوانا مجهولا قد اتى مع السيل وضرب احد الاطفال فقتله ، وينتشر الخبر في القرية وتنتشر القرية كلها على حوافي الوادي تفتش عن السر الرهيب وتقضي النهار بأكمله ودوابها عطشى ، والماء دون اعينها ، وتحدث في خلال ذلك احداث واحداث ، وتفقد القرية ارواحا اخرى ، ويأتي الميب ليسدل الستار على اليوم الرهيب ، وليضع نهاية غير واضحة المعالم لذلك الحيوان الذي لا ندري عنه شيئا سوى انه روع امن القرية ، ونفص عليها فرحتها باليوم المنتظر !

والرواية فيها شحنة من الرمز واضحة ، ولكننا حين نتابع عمل الكاتب لا نكاد نحس بانه يهدف الى رمز معين ، فهو تسترقسه التفاصيل الدقيقة في وصف الطبيعة والاحداث بشكل واقعي مشير ، وهو لا يقدم المجاميع بطريقة اجمالية ، بل لا بد من عرض الافراد ، وتسلط ضوء النهار عليهم دون تركيز على اوصافهم الشخصية التقليدية ، لان الناس في قرية نائية محكومة باسرار كونية لا قيمة لتكويناتهم الشخصية الا بمقدار نصيبهم من المحنة او المصير ، كلاهما مجهول السبب ، وغير مبرر .

رواية الكاتب الاخرى ، والتي صدرت في العام الماضي باسم